

الابتلاء سنة ماضية

عناصر الخطبة

- 1- الابتلاء سنة الأنبياء والرسل ومن تبعهم
- 2- نماذج من ابتلاء الأنبياء
- 3- نماذج من ابتلاء الصحابة والتابعين
- 4- النبي -صلى الله عليه وسلم- يُصبر أهل
- 5- الحكمة من الابتلاء وبعض ثمراته
- 6- الواجب على العبد حين يقع البلاء

التفصيل

الابتلاء سنة الأنبياء والرسل ومن تبعهم

اعلم أن الابتلاء سنة ربانية عامة لم يستثن الله منها أنبياءه ورسله مع علو مقامهم وشرف منزلتهم وكرمهم على ربهم، بل جعلهم أشد الناس بلاءً كما جاء في الحديث الصحيح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ فقال رسول الله: (أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمتل فالأمتل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلماً اشتد بلاءه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة).⁽¹⁾

وما من نبي ولا رسول إلا وابتلي من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، فهؤلاء رسل الله وأنبياء الله قد تعرضوا للمحن والفتن والابتلاءات، لتمحيص الصف، وتمييز الخبيث من الطيب.

قال ربنا جل وعلا: {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: 2-3] فيظن الناس عندما يقولون: آمنا أنه لا يتعرض أحدهم للبلاء! ليست هذه سنة الله سبحانه في خلقه، إنما سنة الله في الخلق أن يبتلي المؤمن، فكلما ازداد الإيمان واليقين كلما ازداد البلاء من الله تبارك وتعالى عليه.

⁽¹⁾ أخرجه أحمد (185/1)، والترمذي في الزهد (2398)، وابن ماجه في الفتن (4022) وغيرهم، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"، وصححه ابن حبان (2900)، والحاكم (40/1، 41)، وصححه الألباني في الصحيحة (143).

قال جل وعلا: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبُ الْبِأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

وقال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: 2]

وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: 2]،

وقال أيضًا {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف: 7]،

وقال عز من قال: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: 4] وقال

تعالى: {وَلِنَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: 31]

فجعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل؛ وذلك لأن المرء قد لا يُكشف في الرخاء، لكن تكشفه الشدة.

فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء؛ فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تياس من روح الله، وإن طال البلاء. (2)

فسنة الله في أي دعوة صادقة خالصة أن يتعرض أصحابها للمحن والابتلاءات لكي تتقى من خبثها ولا يبقى فيها إلا الطيب {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، فإن كنت تبغي الجنة حقاً وعزمت أن تسلك طريقها فعليك أن تضع في قرارة نفسك أنك معرض للابتلاء في كل وقت. وسئل الشافعي قديماً: يا أبا عبد الله: (أيما أفضل للرجل أن يُمكن أو يُبتلى؟ فقال: الشافعي لا يُمكن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم). (3)

نماذج من ابتلاء الأنبياء

ولو ذهبنا نستعرض ابتلاء الأنبياء من لدن آدم إلى نبينا صلى الله وسلم عليهم جميعاً ما وسعتنا هذه الصفحات ولكن نأخذ بعض النماذج:

أول الرسل نوح:| عانى الكرب! ولهذا يقول الله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} [الصافات: 76] قضى ألف سنة إلا خمسين عاماً كلها دعوة، ثم أمره الله عز وجل بعد يأسه من قومه، أن يصنع الفلك {وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} [هود: 38].

أيوب |: أنموذج في الصبر على الابتلاء زكاه ربه سبحانه وتعالى فقال: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص: 44]، فعن أنس بن مالك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَبِثَ فِي بَلَاءِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً فَرَقَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ الْبَا

(2) صيد الخاطر (ص: 439)

(3) الفوائد لابن القيم ص 183.

رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَحْصَ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُونَ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرٌ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ فَأَرْجِعْ إِلَيَّ بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يُذَكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ. قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَيَّ حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتْ أَمْرَاتُهُ بِيَدِهِ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَوْمَ أَبْطَأَ عَلَيْهَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي كِتَابِهِ {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} [ص: 42] فَاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَّغَتْهُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَاحِبًا قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ أَنْدَرُ الْقَمْحِ وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَتْ وَأَفْرَغَتْ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرَقَ حَتَّى فَاضَتْ". (4)

ابتلاء النبي - صلى الله عليه وسلم -

أما النبي - صلى الله عليه وسلم - فأكثر الأنبياء بلاءً وأشدهم إيذاءً يقول عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - في مرضه، وهو يوعك ووعكاً شديداً، وقلت: إنك لتوعك ووعكاً شديداً، قلت: إن ذلك بأن لك أجرين؟ قال: "أجل، ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياها، كما تحات ورق الشجر". (5)

وعن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود، قال: بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزوراً بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعثت ألقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي - صلى الله عليه وسلم - وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحتها عن ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءت وهي جويرية، فطرحتها عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي - صلى الله عليه وسلم - صلواته، رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: "اللهم، عليك بقريش" ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال:

(4) صحيح ابن حبان (7/ 158)، وصححه الألباني في الصحيحة (17)

(5) صحيح البخاري (7/ 115)

"اللَّهُمَّ، عَلَيْنِكَ بِأَبِي جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ، وَعَنْبَةَ بِنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بِنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ بِنِ عُبَيْتَةَ، وَأُمِّيَّةَ بِنِ خَلْفٍ، وَعَنْبَةَ بِنِ أَبِي مُعَيْطٍ" - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صِرَعَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سَحَبُوا إِلَى الْقَلْبِيبِ - قَلْبِيبِ بَدْرٍ - قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: "الْوَلِيدُ بِنِ عُبَيْتَةَ غَطَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ". (6)

فهذا نموذج من الابتلاءات التي مر بها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حياته وهناك الكثير [مثل حصاره في شعب أبي طالب ورحلته إلى الطائف وموت عمه أبي طالب وزوجته خديجة وما أصابه يوم أحد وغير هذا من الابتلاءات].

ابتلاء الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من السلف الصالح

كذلك الصحابة رضي الله عنهم ابتلوا أشد البلاء أيضاً ولما لا، فهم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه وتربوا على يديه -صلى الله عليه وسلم- فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَمَنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ". (7)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِيهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَالْبَسَوْهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهْرُ وَهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدَّ وَأَتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِيهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوَلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ أَحَدًا أَحَدًا. (8)

(6) صحيح مسلم (3/ 1418)، صحيح البخاري (1/ 57).

(7) صحيح البخاري (9/ 20).

(8) إسناده حسن. أخرجه أحمد في مسنده (6/ 382) وابن أبي شيبة (12/ 149 و 14/ 313)، وابن ماجه (150)، والشاشي (641)، وابن حبان (7083)، وأبو نعيم في "الحلية" (1/ 149 و 172)، وابن عبد البر في "الاستيعاب" 141/1.

وها هو عروة بن الزبير أحد التابعين الكبار نموذج ممن نزل بهم البلاء فأظهر الصبر وأكثر من الدعاء فعن هشام بن عروة، قال: خرج أبي إلى الوليد بن عبد الملك فوقع في رجله الأكلة فقال له الوليد: يا أبا عبد الله أرى لك قطعها قال: فقطع وإنه لصائم فما تضور وجهه قال: ودخل ابن له أكبر ولده اصطبّل الدوابّ فرستته دابته فقتلته فما سمع من أبي في ذلك شيء حتى قدم المدينة فقال: "اللهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة فلك الحمد وكان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد وأيم الله لن أخذت لقد أبقيت ولن أبليت طالما عافيت". (9)

وتمثل بأبيات معن بن أوس:

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرَيْبَةٍ
وَلَا قَادِنِي سَمْعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا
وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصَيِّبْنِي مُصِيبَةٌ
وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةِ رِجْلِي
وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتِي قَبْلِي

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: لا تکرهوا البلیا الواقعة، والنقمة الحادثة، فلرب أمر تکرهه فيه نجاتک، ولرب أمر تؤثره فيه عطبك - أي: هلاکک - . وقال الفضل بن سهل: إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة.

وعن مطرف بن عبد الله قال: لن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر.

النبی -صلى الله عليه وسلم- یصبر أهل الابتلاء

عَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ، فَقَالَ: "أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ"، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السَّمَانَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ؟ قَالَ: "إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلُوا"، قَالَ: "فَابْتَلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا". (10)

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- : "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ عَجَلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". (11)

(9) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 179).

(10) صحيح مسلم (1/ 131).

(11) رواه الترمذي ت شاكر (4/ 601)، وغيره، وقال الألباني: حسن صحيح

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغَفَّلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ! - إِنِّي لأُحِبُّكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "إِنَّ الْبَلَايَا أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُنْتَهَاهُ". (12)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يُصِبْ مِنْهُ". (13)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةَ، مَا يَنَالُهَا بِعَمَلٍ، فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ، حَتَّى يُبَلِّغَهُ أَيَّامًا". (14)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- "إِنَّ عِظْمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ". (15)

الحكمة من الابتلاء وبعض ثمراته

1- الابتلاءات ترد العبد إلى ربه وإلى دينه ردًا جميلًا.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [المؤمنون: 75].

قال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى: 27].

وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى} [العلق: 6 - 7]، وقال تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا} [الإسراء: 83]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِذَا خَوْلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [الزمر: 8]، فاعلم أن النعم قد تبعث على الطغيان والتجبر في الأرض فسنة الله في الخلق أنهم إذا أمدوا بالعافية والمال والجاه والولد بدعوا في الطغيان والتطاول على الخلق، فيبتليهم الله بالبلايا، بلاءً تلو بلاءً؛ لإرجاعهم إلى طريقه.

(12) أخرجه ابن حبان (2911)، وقال الألباني "حسن صحيح".

(13) أخرجه البخاري (5321).

(14) أخرجه أبو يعلى (6100)، وقال الألباني "حسن صحيح" انظر: السلسلة الصحيحة (1599).

(15) أخرجه الترمذي (2396) وقال الألباني "حسن".

قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [الأعراف: 94]، لماذا أخذناهم بالبأساء والضراء؟ قال تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ} [الأعراف: 94] أي: لعل أكف الضراعة منهم ترتفع إلى الله تسأله وترجوه وترغب إليه وتلجأ. وقال تعالى أيضاً في كتابه الكريم: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} [الأعراف: 130] أي: بسنوات الشدة {وَنَقَصَ مِنَ الشَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ} [الأعراف: 130].

2- استخراج جوانب من العبودية

إن الابتلاءات والمحن تستخرج منك جوانب من جوانب العبودية، لا تفعلها وقت رخائك ووقت يسارك. تستخرج منك دعوات مباركات كما استخراجت من زكريا عليه السلام وهو يمد يديه إلى السماء: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [الأنبياء: 89] وهو يدعو ويقول: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38].

إن هذه الابتلاءات تستخرج منك دعوات لا تستشعر لها طعمًا ولا تذوق لها حلاوة إلا عند البلاء. تستخرج منك دعوة كتلك التي دعا بها أيوب عليه السلام: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83]، وكالتي دعا بها نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ} [القمر: 10] كلها دعوات لا تخرج بإخلاص وبشدة إخلاص إلا مع عظيم الألم وشدة البلاء، فتستخرج أنواعاً من العبودية كالخضوع لله، وكالإخبات إليه، وكحسن التضرع واللجوء إلى الله تبارك وتعالى.

3- الشوق إلى الجنة و نعيمها و راحتها

فلن نشاق إلى الجنة حتماً إلا إذا ذقنا مرارة الدنيا، و إلا فكيف نشاق للجنة إذن و نتوق أنفسنا إليها إن كنا في هذه الدنيا نصبح و نمسي هانئين مرتاحين مبتهجين مسرورين، لابد من الأحزان و الآلام، هكذا قضى و قدر العليم الحكيم، فأنعم به من مدبر حكيم.

يقول جل في علاه على لسان المومنين بعد أن أكرمهم بالجنان و العتق من النيران {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: 34]

يقول الشافعي -رحمه الله- :

وَطِيبُ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ	دَعِ الْأَقْدَارَ تَفَعَّلْ مَا تَشَاءُ
فَمَا لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ	وَلَا تَجْزَعُ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي
وَشِمْتُكَ السَّمَاحَةَ وَالْوَفَاءُ	وَكُنْ رَجُلًا عَلَى الْأَهْوَالِ جَدًّا

وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي الْبَرَايَا
تَسْتَرُّ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ عَيْبٍ
وَلَا تُرِ لِلْأَعَادِي قَطُّ ذُلًّا
وَلَا تَرَجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَّأَنِّي
وَلَا حُزْنٌ يَدُومٌ وَلَا سُرُورٌ
إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ
وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ الْمَنَايَا
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ
دَعِ الْإِيَّامَ تَعْدِرُ كُلَّ حِينٍ

وَسَرَكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءٌ
يُغَطِّيهِ كَمَا قِيلَ السَّخَاءُ
فَإِنَّ شِمَاتَةَ الْأَعْدَا بَلَاءٌ
فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمَانِ مَاءٌ
وَلَيْسَ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ الْعَنَاءُ
وَلَا بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلَا رَخَاءٌ
فَأَنْتَ وَمَالُكَ الدُّنْيَا سَوَاءٌ
فَلَا أَرْضٌ تَقِيهِ وَلَا سَمَاءٌ
إِذَا نَزَلَ الْقَضَا ضَاقَ الْفَضَاءُ
فَمَا يُغْنِي عَنِ الْمَوْتِ الدَّوَاءُ (16)

4- الابتلاءات تعلم المؤمنين ما جهلوا من سنن الدين والحياة.

"قالمؤمن مهما عظمت بالله صلته لا ينبغي أن يغتر به، أو يحسب الدنيا دانت له، أو يظن قوانينها الثابتة طوع يديه. . كلا فالحذر البالغ، والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له، وأن شيئاً منها لن يكون عليه، وأن أمجاد الدارين تتال دون بذل التكاليف الباهظة، فقد سار في طريق الفشل الذريع: {إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدُوتُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 140، 141، 142]. (16)

5- الابتلاءات تميز الخبيث من الطيب

فالدعوات إبان امتدادها وانتصارها تغري الكثيرين بالانضواء تحت لوائها، فيختلط المخلص بالمغرض، والأصيل بالدخيل، وهذا الاختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإنتاجها، ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تعزل الخبث عنها". (17)

(16) (فقه السيرة للشيخ الغزالي ص304).

(17) (فقه السيرة للغزالي ص299).

فالدعوات حال الأمن والرخاء والعافية وامتلاك منابر الدعوة من دون التعرض إلى التضييق أو الأذى والفتنة، ربما دخل فيها ظاهراً من كان يكيد لها باطناً، وربما تبوأ ذلك الدعي مكانة أو وصل إلى درجة تمكنه من بث بذور الفتنة، أو بذر بذور الشقاق.

يقول الله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 179].

6- الرفعة في الدنيا

فإن المبتلين أعظم الناس رفعة، يكونون مبتلين في أول الطريق، فإذا صبروا واحتسبوا رفع الله ذكرهم أبد الدهر.

7- حتى لا تصاب بالكبر والغرور

وهي من الحكم العظيمة، فتخيل لو استمرت الأمور مستقرة وحياتنا هادئة، فماذا يحدث للإنسان هنا؟ إنك تعرف نفسك أكثر من أي إنسان! !

ستصاب بالكبر والغرور أليس كذلك؟ فالحياة مستقرة ليس بها ما يعكرها نعيم وسعادة ومنافع (وهذا ما يحدث لأهل الباطل).

وهنا يصاب الإنسان بالكبر والغرور والتعالي على الله وعدم الاحتياج له ولذلك يبتلينا الله، فنرجع إليه ونتذلل له ونحتاج إليه فرحمة بنا ابتلينا.

وهناك فوائد كثيرة للابتلاء منها:

- تكفير الذنوب ومحو السيئات.
- رفع الدرجة والمنزلة في الآخرة.
- الشعور بالتفريط في حق الله واتهام النفس ولومها.
- فتح باب التوبة والذل والانكسار بين يدي الله.
- تقوية صلة العبد بربه.
- تذكر أهل الشقاء والمحرومين والإحساس بالأمهم.
- قوة الإيمان بقضاء الله وقدره واليقين بأنه لا ينفذ ولا يضر إلا الله.
- تذكر المال وإبصار الدنيا على حقيقتها.
- معرفة حقيقة الناس ومصداقيتهم
- تمحيص الصف الإسلامي من المنافقين

- التوكل والاعتماد على الله
- معرفة مخططات ومكائد أعداء الإسلام
- الابتلاء علامة لمحبة الله للعبد
- حقارة الدنيا عند الابتلاء
- الابتلاء ببعث الهمة في النفوس

فيا عباد الله: لقد جرت سنة الله في عباده المؤمنين أن يبتليهم ابتلاءً يقوى بقوة الإيمان، ويضعف بضعف الإيمان.

- (1) أن يتيقن أن هذا من عند الله فيسلم الأمر له.
- (2) أن يلتزم الشرع ولا يخالف أمر الله فلا يتسخط ولا يسب الدهر.
- (3) أن يتعاطى الأسباب النافعة لدفع البلاء.
- (4) أن يستغفر الله ويتوب إليه مما أحدث من الذنوب.